﴿تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣]؛ فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على شهادته بوجود الله وربوبيته وسواءٌ أقلنا: إن الله استخرجهم من ظهر آدم واستشهدهم، أو قلنا: إن هذا هو ما ركب الله تعالى في فطرهم من الإقرار به؛ فإن الآية تدل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته.

هذه أدلة أربعة تدل على وجود الله سبحانه وتعالى.

ـ وأما دلالة الشرع؛ فلأن ما جاءت به الرسل من شرائع الله تعالى المتضمنة لجميع ما يُصْلِحُ الخلقَ يدل على أن الذي أَرْسِلَ بها رب رحيم حكيم، ولا سيما هذا القرآن المجيد، الذي أعجز البشر والجن أن يأتوا بمثله.

* «وملائكته»: الملائكة جمع: ملأك، وأصل ملأك: مألك؛ لأنه من الألوكة، والألوكة في اللغة الرسالة؛ قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ﴾ [فاطر: ١].

فالملائكة عالم غيبي، خلقهم الله عز وجل من نور، وجعلهم طائعين له متذللين له، ولكل منهم وظائف خصه الله بها، ونعلم من وظائفهم:

**أولاً**: جبريل: موكل بالوحي، ينزل به من الله تعالى إلى الرسل.

**ثانياً**: إسرافيل: موكل بنفخ الصور، وهو أيضاً أحد حملة

العرش.

**ثالثاً**: ميكائيل: موكل بالقطر والنبات.

وهؤلاء الثلاثة كلهم موكلون بما فيه حياة؛ فجبريل موكل بالوحي وفيه حياة القلوب، وميكائيل بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض، وإسرافيل بنفخ الصور وفيه حياة الأجساد يوم المعاد. ولهذا كان النبي ﷺ يتوسل بربوبية الله لهم في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل، فيقول: «اللهم! رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل! فاطر السماوات والأرض! عالم الغيب والشهادة! أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[(١)]، هذا الدعاء الذي كان يقوله في قيام الليل متوسلاً بربوبية الله لهم.

كذلك نعلم أن منهم من وكل بقبض أرواح بني آدم، أو بقبض روح كل ذي روح، وهم: ملك الموت وأعوانه، ولا يسمى عزرائيل؛ لأنه لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن اسمه هذا.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال تعالى: ﴿۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

ولا منافاة بين هذه الآيات الثلاث؛ فإن الملائكة تقبض الروح؛ فإن ملك الموت إذا أخرجها من البدن تكون عنده ملائكة، إن كان الرجل من أهل الجنة؛ فيكون معهم حنوط من الجنة، وكفن من الجنة، يأخذون هذه الروح الطيبة، ويجعلونها في هذا الكفن، ويصعدون بها إلى الله عز وجل، حتى تقف بين يدي الله، ثم يقول: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فترجع الروح إلى الجسد من أجل الاختبار: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وإن كان الميت غير مؤمن والعياذ بالله؛ فإنه ينزل ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من النار، يأخذون الروح، ويجعلونها في هذا الكفن، ثم يصعدون بها إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، وتطرح إلى الأرض؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، ثم يقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في سجين[١]. نسأل الله العافية!

هؤلاء موكلون بقبض الروح من ملك الموت إذا قبضها، وملك الموت هو الذي يباشر قبضها؛ فلا منافاة إذن، والذي يأمر بذلك هو الله، فيكون في الحقيقة هو المتوفِّي.

ومنهم ملائكة سياحون في الأرض، يلتمسون حِلقَ الذكر،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وغيرهما، وقال الحاكم: هو صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وانظر: «أحكام الجنائز وبدعها» للألباني ص١٥٦.

إذا وجدوا حلقة العلم والذكر؛ جلسوا[1].

وكذلك هناك ملائكة يكتبون أعمال الإنسان: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ١٠ _ ١٢]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨].

دخل أحد أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض رحمه الله، فوجده يئن من المرض، فقال له: يا أبا عبد الله! تئن، وقد قال طاووس: إن الملك يكتب حتى أنين المريض؛ لأن الله يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨]؟ فجعل أبو عبد الله يتصبر، وترك الأنين؛[2] لأن كل شيء يكتب، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾: (من): زائدة لتوكيد العموم، أيَّ قولٍ تقوله؛ يكتب، لكن قد تجازى عليه بخير أو بشر، هذا حسب القول الذي قيل.

ومنهم أيضاً ملائكة يتعاقبون على بني آدم في الليل والنهار، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ومنهم ملائكة رُكَّع وسُجَّد لله في السماء؛ قال النبي عليه

---

(١) لما رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم. قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا». واللفظ للبخاري.

(٢) لما رواه صالح بن الإمام أحمد قال: «قال أبي في مرض موته: أخرج كتاب عبد الله بن إدريس فقال: اقرأ عليّ حديث ليث: إن طاووساً كان يكره الأنين في المرض فما سمعت لأبي أنيناً حتى مات»، «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٥).

الصلاة والسلام: «أطت السماء، وحق لها أن تئط»، والأطيط: صرير الرحل؛ أي: إذا كان على البعير حمل ثقيل؛ تسمع له صرير من ثقل الحمل، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما من موضع أربع أصابع منها؛ إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد»(١)، وعلى سعة السماء فيها هؤلاء الملائكة.

ولهذا قال الرسول ﷺ في البيت المعمور الذي مر به في ليلة المعراج؛ قال: «يطوف به (أو قال: يدخله) سبعون ألف ملك كل يوم، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم»(٢)، والمعنى: كل يوم يأتي إليه سبعون ألف ملك غير الذين أتوه بالأمس، ولا يعودون له أبداً، يأتي ملائكة آخرون غير من سبق، وهذا يدل على كثرة الملائكة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومنهم ملائكة موكلون بالجنة وموكلون بالنار؛ فخازن النار اسمه مالك؛ يقول أهل النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ يعني: ليهلكنا ويمتنا؛ فهم يدعون الله أن يميتهم؛ لأنهم في عذاب لا يُصْبَر عليه، فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]،

---

(١) رواه: أحمد (٥/١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٢/٥١٠) عن أبي ذر رضي الله عنه. ولفظه: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ عليه ملك واضع جبهته ساجداً لله...» والحديث خرجه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

(٢) رواه مسلم (١٦٢) من حديث أنس في قصة الإسراء.

ثم يُقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

المهم: أنه يجب علينا أن نؤمن بالملائكة.

وكيف الإيمان بالملائكة؟

نؤمن بأنهم عالم غيبي لا يشاهدون، وقد يشاهدون، إنما الأصل أنهم عالم غيبي، مخلوقون من نور، مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات، وهم خاضعون لله عز وجل أتم الخضوع، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم، ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم، ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما عُلمنا.

وهم أجساد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]، ورأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلِقَ عليها، له ست مئة جناح، قد سد الأُفق[(١)]؛ خلافاً لمن قال: إنهم أرواح.

إذا قال قائل: هل لهم عقول؟ نقول: هل لك عقل؟ ما يسأل عن هذا إلا رجل مجنون؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]؛ فهل يثني عليهم هذا الثناء وليس لهم عقول؟! ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]؛ أنقول: هؤلاء ليس لهم عقول؟! يأتمرون بأمر الله، ويفعلون ما

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢، ٣٢٣٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

أمر الله به، ويبلغون الوحي، ونقول: ليس لهم عقول؟! أحق من يوصف بعدم العقل من قال: إنه لا عقول لهم!!

* «وكُتُبِه»؛ أي: كتب الله التي أنزلها مع الرسل.

ولكل رسول كتاب؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهذا يدل على أن كل رسول معه كتاب، لكن لا نعرف كل الكتب، بل نعرف منها: صحف إبراهيم وموسى، التوراة، الإنجيل، الزبور، القرآن؛ ستة؛ لأن صحف موسى بعضهم يقول: هي التوراة، وبعضهم يقول: غيرها، فإن كانت التوراة؛ فهي خمسة، وإن كانت غيرها؛ فهي ستة، ولكن مع ذلك نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على الرسل، وإن لم نعلم به، نؤمن به إجمالاً.

* «وَرُسُلِهِ»؛ أي: رسل الله، وهم الذين أوحى الله إليهم بالشرائع، وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح، وآخرهم محمد ﷺ.

الدليل على أن أولهم نوح: قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]؛ يعني: وحياً؛ كإيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده، وهو وحي الرسالة. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]: ﴿في ذريتهما﴾؛ أي: ذرية نوح وإبراهيم، والذي قبل نوح لا يكون من ذريته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]؛ قد نقول: إن قوله: ﴿من قبل﴾: يدل على ما سبق.

إذاً من القرآن ثلاثة أدلة تدل على أن نوحاً أول الرسل.

ومن السنة ما ثبت في حديث الشفاعة: «أن أهل الموقف يقولون لنوح: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»[1]، وهذا صريح.

أما آدم عليه الصلاة والسلام؛ فهو نبي، وليس برسول.

وأما إدريس؛ فذهب كثير من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضاً إلى أنه قبل نوح، وأنه من أجداده، لكن هذا قول ضعيف جدّاً، والقرآن والسنة ترده، والصواب ما ذكرنا.

وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولم يقل: وخاتم المرسلين؛ لأنه إذا ختم النبوة؛ ختم الرسالة من باب أولى.

فإن قلت: عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان،[2] وهو رسول؛ فما الجواب؟

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٠) ومسلم (١٩٤).

(٢) لما رواه الإمام أحمد (٢٩٢١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ قال: هو خروج عيسىٰ بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً» أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥)، وقد ذكر ابن كثير الأحاديث الواردة في نزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام إلىٰ الأرض من السماء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة =

نقول: هو لا ينزل بشريعة جديدة، وإنما يحكم بشريعة النبي ﷺ.

فإذا قال قائل: من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وعيسى يحكم بشريعة النبي ﷺ، فيكون من أتباعه؛ فكيف يصح قولنا: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر؟

فالجواب: أحد ثلاثة وجوه:

**أولها**: أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول مستقل من أولي العزم، ولايخطر بالبال المقارنة بينه وبين الواحد من هٰذه الأمة؛ فكيف بالمفاضلة؟! وعلى هٰذا يسقط هذا الإيراد من أصله؛ لأنه من التنطع، وقد هلك المتنطعون؛ كما قال النبي ﷺ(١).

**الثاني**: أن نقول: هو خير الأمة إلا عيسى.

**الثالث**: أن نقول: إن عيسى ليس من الأمة، ولا يصح أن نقول: إنه من أمته، وهو سابق عليه، لكنه من أتباعه إذا نزل؛ لأن شريعة النبي ﷺ باقية إلى يوم القيامة.

فإن قال قائل: كيف يكون تابعاً، وهو يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل إلا الإسلام مع أن الإسلام يقر أهل الكتاب بالجزية؟!

---

= يكون عليهم شهيدا﴾ [النساء: ١٥٩].

(١) رواه مسلم (٢٦٧٠)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قلنا: إخبار النبي ﷺ بذلك إقرار له، فتكون من شرعه، ويكون نسخاً لما سبق من حكم الإسلام الأول.

* «وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ»: البعث بمعنى الإخراج؛ يعني: إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم.

وهذا من معتقد أهل السنة والجماعة.

وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، بل إجماع اليهود والنصارى؛ حيث يقرون بأن هناك يوماً يُبْعَثُ الناس فيه ويجازَوْن:

ـ أما القرآن؛ فيقول الله عز وجل: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥ـ ١٦].

ـ وأما في السنة؛ فجاءت الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في ذلك.

ـ وأجمع المسلمون على هذا إجماعاً قطعيّاً، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة، ويلاقون ربهم، ويجازون بأعمالهم؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦]؛ فتذكر هذا اللقاء، حتى تعمل له؛ خوفاً من أن تقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة وليس عندك شيء من العمل الصالح، انظر

ماذا عملت ليوم النقلة؟ وماذا عملت ليوم اللقاء؟ فإن أكثر الناس اليوم ينظرون ماذا عملوا للدنيا؛ مع العلم بأن هذه الدنيا التي عملوا لها لا يدرون هل يدركونها أم لا؟ قد يخطط الإنسان لعمل دنيوي يفعله غداً أو بعد غد، ولكنه لا يدرك غداً ولا بعد غد، لكن الشيء المتيقن أن أكثر الناس في غفلة من هذا؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وأعمال الدنيا يقول: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]؛ فأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والاستمرار: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢]؛ يعني: يوم القيامة. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

هذا البعث الذي اتفقت عليه الأديان السماوية وكل متدين بدين هو أحد أركان الإيمان الستة، وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة، ولا ينكره أحد ممن ينتسب إلى ملة أبداً.

* «وَالإيمانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» هذا الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

القدر: هو تقدير الله عز وجل للأشياء.

وقد كتب الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[1]؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

(١) لما رواه مسلم (٢٦٥٣) عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» =

﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠].

*وقوله: «خيره وشره»: أما وصف القدر بالخير؛ فالأمر فيه ظاهر. وأما وصف القدر بالشر؛ فالمراد به شر المقدور لا شر القدر الذي هو فعل الله؛ فإن فعل الله عز وجل ليس فيه شر، كل أفعاله خير وحكمة، لكن الشر في مفعولاته ومقدوراته؛ فالشر هنا باعتبار المقدور والمفعول، أما باعتبار الفعل؛ فلا، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «والشر ليس إليك»[١].

فمثلاً؛ نحن نجد في المخلوقات المقدورات شرًّا؛ ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر؛ لأنها لا تلائمه، وفيها أيضاً المعاصي والفجور والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك، وكل هذه شر، لكن باعتبار نسبتها إلى الله هي خير؛ لأن الله عز وجل لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة، عَرَفَها من عَرَفَها، وَجَهِلَهَا من جهلها.

وعلى هذا يجب أن نعرف أن الشر الذي وُصِفَ به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير الله وفعله.

---

= قال: «وعرشه على الماء».

(١) قطعة من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رواه مسلم (٧٧١).

ثم اعلم أيضاً أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شرًّا في نفسه، لكنه خير من جهة أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، النتيجة طيبة، وعلى هذا؛ فيكون الشر في هذا المقدور شرًّا إضافيًّا؛ يعني: لا شرًّا حقيقيًّا؛ لأن هذا ستكون نتيجته خيراً.

ولنفرض حد الزاني مثلاً إذا كان غير مُحصن أن يجلد مئة جلدة ويُسَفَّر عن البلد لمدة عام، هذا لا شك أنه شر بالنسبة إليه؛ لأنه لا يلائمه، لكنه خير من وجه آخر؛ لأنه يكون كفارة له؛ فهذا خير؛ لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة؛ فهو خير له، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره؛ فإن غيره لو هم أن يزني وهو يعلم أنه سيفعل به مثل ما فُعل بهذا؛ لارتدع، بل قد يكون خيراً له هو أيضاً، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذي سبب له هذا الشيء.

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية؛ فهناك شيء يكون شرّاً باعتباره مقدوراً؛ كالمرض مثلاً؛ فالإنسان إذا مرض؛ فلا شك أن المرض شر بالنسبة له؛ لكنْ فيه خير له في الواقع، وخيره تكفير الذنوب، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفرها الاستغفار والتوبة؛ لوجود مانع؛ مثلاً لعدم صدق نيته مع الله عز وجل، فتأتي هذه الأمراض والعقوبات، فتكفر هذه الذنوب.

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قَدْر نعمة الله عليه بالصحة؛

إلا إذا مرض، نحن الآن أصحاء، ولا ندري ما قَدْر الصحة، لكن إذا حصل المرض؛ عرفنا قَدْر الصحة؛ فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يعرفها إلا المرضى... هذا أيضاً خير، وهو أنك تعرف قدر النعمة.

ومن خيره أنه قد يكون في هذا المرض أشياء تقتل جراثيم في البدن لا يقتلها إلا المرض؛ يقول الأطباء: بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التي في الجسد وأنت لا تدري.

فالحاصل أننا نقول:

**أولاً**: الشر الذي وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور الله، أما تقدير الله؛ فكله خير، والدليل قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»[1].

**ثانياً**: أن الشر الذي في المقدور ليس شرّاً محضاً، بل هذا الشر قد ينتج عليه أمور هي خير، فتكون الشرِّيَّة بالنسبة إليه أمراً إضافيّاً.

هذا؛ وسيتكلم المؤلف رحمه الله على القدر بكلام موسع يبين درجاته عند أهل السنة.

● قوله: **«وَمِنَ الإِيْمانِ بِاللهِ: الإيمانُ بِما وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ في كِتابِهِ، وَبِما وَصَفَهُ بِهِ رَسولُهُ مُحَمَّد ﷺ»**.

---

(١) تقدم تخريجه.

**الشرح:**

* قوله: «**ومن الإيمان**»: (من): هنا للتبعيض؛ لأننا ذكرنا أن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وانفراده بالربوبية، وبالأُلوهية، وبالأسماء والصفات؛ يعني: بعضُ الإيمان بالله: الإيمانُ بما وصف به نفسه.

* وقوله: «**بما وصف به نفسه في كتابه**»: ينبغي أن يقال: وسمى به نفسه، لكن المؤلف رحمه الله ذكر الصفة فقط: إما لأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفة، أو لأن الخلاف في الأسماء خلاف ضعيف، لم ينكره إلا غلاة الجهمية والمعتزلة؛ فالمعتزلة يثبتون الأسماء، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الأسماء، لكن يخالفون أهل السنة في أكثر الصفات.

فنحن الآن نقول: لماذا اقتصر المؤلف على «ما وصف الله به نفسه»؟

نقول: لأحد أمرين: إما لأن كل اسم يتضمن صفة، وإما لأن الخلاف في الأسماء قليل بالنسبة للمنتسبين للإسلام.

«في كتابه»: (كتابه) يعني: القرآن، وسماه الله تعالى كتاباً؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة، ومكتوب كذلك بين الناس يكتبونه في المصاحف؛ فهو كتاب بمعنى مكتوب، وأضافه الله إليه؛ لأنه كلامه سبحانه وتعالى؛ فهذا القرآن كلام الله، تكلم به حقيقة؛ فكل حرف منه؛ فإن الله قد تكلم به.

وفي هٰذه الجملة مباحث:

**المبحث الأول: أن من الإيمان بالله الإيمانَ بما وصف به نفسه:**

ووجه ذلك أن الإيمان بالله ـ كما سبق ـ يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته؛ فإن ذات الله تسمى بأسماء وتوصف بأوصاف، ووجود ذات مجردة عن الأوصاف أمر مستحيل؛ فلا يمكن أن توجد ذات مجردة عن الأوصاف أبداً، وقد يفرض الذهن أن هناك ذاتاً مجردة من الصفات، لكن الفرض ليس كالأمر الواقع؛ أي أن المفروض ليس كالمشهود؛ فلا يوجد في الخارج ـ أي: في الواقع المشاهد ـ ذاتٌ ليس لها صفات أبداً.

فالذهن قد يفرض مثلاً شيئاً له ألف عين، في كل ألف عين ألف سوادٍ وألف بياض، وله ألف رِجل، في كل رِجل ألف أُصبع، في كل أُصبع ألف ظفر، وله ملايين الشعر، في كل شعرة ملايين الشعر. . . وهكذا! يفرضه وإن لم يكن له واقع؛ لكن الشيء الواقع لا يمكن أن يوجد شيء بدون صفة.

لهذا؛ كان الإيمان بصفات الله من الإيمان بالله، لو لم يكن من صفات الله إلا أنه موجود واجب الوجود، وهذا باتفاق الناس، وعلى هذا؛ فلا بد أن يكون له صفة.

**المبحث الثاني: أن صفات الله عز وجل من الأُمور الغيبية، والواجب على الإنسان نحو الأمور الغيبية: أن يؤمن بها على ما جاءت؛ دون أن يرجع إلى شيء سوى النصوص.**

قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يُتَجاوَزُ القرآنُ والحديث»(١).

يعني أننا لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ.

ويدل لذلك القرآن والعقل:

ففي القرآن: يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ فإذا وصفتَ الله بصفة لم يصف الله بها نفسه؛ فقد قلت عليه ما لا تعلم، وهذا محرم بنص القرآن.

ويقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولو وصفنا الله بما لم يصف به نفسه؛ لكنا قَفَوْنا ما ليس لنا به علم، فوقعنا فيما نهى الله عنه.

وأما الدليل العقلي؛ فلأن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية، ولا يمكن في الأُمور الغيبية أن يدركها العقل، وحينئذ لا نصف الله بما لم يصف به نفسه، ولا نكيف صفاته؛ لأن ذلك غير ممكن.

نحن الآن لا ندرك ما وصف الله به نعيم الجنة من حيث

---

(١) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٥/ ٢٦).

الحقيقة، مع أنه مخلوق، في الجنة فاكهة ونخل ورمان وسرر وأكواب وحور، ونحن لا ندرك حقيقة هذه الأشياء، ولو قيل: صفها لنا؛ لا نستطيع وصفها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ولقوله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(١)].

فإذا كان هذا في المخلوق الذي وُصِفَ بصفاتٍ معلومة المعنى ولا تُعْلَم حقيقتها؛ فكيف بالخالق؟!

مثال آخر: الإنسان فيه روح، لا يحيا إلا بها، لولا أن الروح في بدنه ما حيي، ولا يستطيع أن يصف الروح، لو قيل له: ما هذه الروح التي بك؟ ما هي التي لو نزعت منك؛ صرت جثة وإذا بقيت؛ فأنت إنسان تعقل وتفهم وتدرك؟ لجلس ينظر ويفكر فلا يستطيع أن يصفها أبداً، مع أنها قريبة منه؛ في نفسه وبين جنبيه، ويعجز عن إدراكها، مع أنها حقيقة؛ يعني: شيء يُرى؛ كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بـ «أن الروح إذا قُبِضَ؛ تبعه البصر»[(٢)]؛ فالإنسان يرى نفسه وهي مقبوضة، ولهذا تبقى العين مفتوحة عند الموت تشاهد الروح، وهي قد خرجت، وتُؤخذ هذه الروح، وتُجعل في كفن، ويُصعد بها إلى الله، ومع ذلك ما يستطيع أن يصفها، وهي بين جنبيه؛ فكيف يحاول أن يصف الرب بأمرٍ لم

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٩٢٠) عن أم سلمة رضي الله عنها.

يصف به نفسه!

ولا بد إذاً تحقق ثبوت الصفات لله.

**المبحث الثالث: أننا لا نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه.**

ودليل ذلك أيضاً من السمع والعقل:

ذكرنا من السمع آيتين.

وأما من العقل؛ فقلنا: إن هذا أمر غيبي، لا يمكن إدراكه بالعقل، وضربنا لذلك مثلين:

**المبحث الرابع: وجوب إجراء النصوص الواردة في الكتاب والسنة على ظاهرها، لا نتعداها.**

مثال ذلك: لما وصف الله نفسه بأن له عيناً؛ هل نقول: المراد بالعين الرؤية لا حقيقة العين؟ لو قلنا ذلك؛ ما وصفنا الله بما وصف به نفسه.

ولما وصف الله نفسه بأن له يدين: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ لو قلنا: إن الله تعالى ليس له يد حقيقة، بل المراد باليد ما يسبغه من النعم على عباده؛ فهل وصفنا الله بما وصف به نفسَه؟ لا!

**المبحث الخامس: عُموم كلام المؤلف يشمل كل ما وصف الله به نفسه من الصفات الذاتية المعنوية والخبرية والصفات الفعلية.**

فالصفات الذاتية هي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، وهي نوعان: معنوية وخبرية:

فالمعنوية؛ مثل: الحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة... وما أشبه ذلك، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر.

والخبرية؛ مثل: اليدين، والوجه، والعينين... وما أشبه ذلك مما سماه، نظيره أبعاض وأجزاء لنا.

فالله تعالى لم يزل له يدان ووجه وعينان، لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن، ولن ينفكَّ عن شيء منه؛ كما أن الله لم يزل حيّاً ولا يزال حيّاً، لم يزل عالماً ولا يزال عالماً، ولم يزل قادراً ولا يزال قادراً... وهكذا؛ يعني: ليس حياته تتجدد، ولا قدرته تتجدد، ولا سمعه يتجدد، بل هو موصوف بهذا أزلاً وأبداً، وتجدد المسموع لا يستلزم تجدد السمع؛ فأنا مثلاً عندما أسمع الأذان الآن؛ فهذا ليس معناه أنه حدث لي سمع جديد عند سماع الأذان، بل هو منذ خلقه الله فيَّ، لكن المسموع يتجدد، وهذا لا أثر له في الصفة.

واصطلح العلماء رحمهم الله على أن يسموها الصفات الذاتية؛ قالوا: لأنها ملازمة للذات، لا تنفك عنها.

والصفات الفعلية هي الصفات المتعلقة بمشيئته، وهي نوعان:

صفات لها سبب معلوم؛ مثل: الرضى؛ فالله عز وجل إذا

وجد سبب الرضى؛ رضي؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وصفات ليس لها سبب معلوم؛ مثل: النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر.

ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتبارين؛ فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده، لكن باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، لكنه يتكلم بما شاء متى شاء؛ كما سيأتي في بحث الكلام إن شاء الله تعالى.

اصطلح العلماء رحمهم الله أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية؛ لأنها من فعله سبحانه وتعالى.

ولها أدلة كثيرة من القرآن؛ مثل: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

وليس في إثباتها لله تعالى نقص بوجه من الوجوه، بل هذا من كماله أن يكون فاعلاً لما يريد.

وأولئك القوم المحرفون يقولون: إثباتها من النقص! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية؛ يقولون: لا يجيء، ولا يرضى، ولا يسخط، ولا يكره، ولا يحب... ينكرون كل هذه؛ بدعوى

أن هذه حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، وهذا باطل؛ لأنه في مقابلة النص، وهو باطل بنفسه؛ فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل.

**المبحث السادس: أن العقل لا مدخل له في باب الأسماء والصفات:**

لأن مدار إثبات الأسماء والصفات أو نفيها على السمع؛ فعقولنا لا تحكم على الله أبداً؛ فالمدار إذاً على السمع؛ خلافاً للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل التعطيل، الذين جعلوا المدار في إثبات الصفات أونفيها على العقل، فقالوا: ما اقتضى العقل إثباته؛ أثبتناه، سواء أثبته الله لنفسه أم لا! وما اقتضى نفيه؛ نفيناه، وإن أثبته الله! وما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه؛ فأكثرهم نفاه، وقال: إن دلالة العقل إيجابية؛ فإن أوجب الصفة؛ أثبتناها، وإن لم يوجبها؛ نفيناها! ومنهم من توقف فيه، فلا يثبتها؛ لأن العقل لا يثبتها، لكن لا ينكرها؛ لأن العقل لا ينفيها، ويقول: نتوقف! لأن دلالة العقل عند هذا سلبية، إذا لم يوجب؛ يتوقف، ولم ينف!

فصار هؤلاء يحكِّمون العقل فيما يجب أو يمتنع على الله عز وجل.

فيتفرع على هذا: ما اقتضى العقل وَصْفَ الله به؛ وُصِفَ الله به، وإن لم يكن في الكتاب والسنة، وما اقتضى العقل نَفْيَه عن الله؛ نَفَوْه، وإن كان في الكتاب والسنة.